أثر العلم الحديث في الاختيارات العقدية عند محمد رشيد رضا : الكرامة نموذجًا

دكتور/ حسن أحمد محمد عبداللطيف
مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم – جامعة المنيا

مقدمة:

من المعلوم أن هناك مسائل عقدية تتعدد وجهات النظر حولها منذ بدأ الجدل في العقائد وحتى يومنا هذا، فهي دائمًا محل جدل وخلاف، والسبب في ذلك أنه ليس هناك نصوص قطعية الثبوت والدلالة تحسم الجدل في هذه المسألة أو تلك، وهذا في الحقيقة هو ما كان السبب الحقيقي في نشأة علم الكلام نشأة إسلامية خالصة.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي يجعلنا نختار هذا الرأي أو وجهة النظر تلك دون سواها؟

يتمسك البعض برأي ما_ في هذه المسألة أوتلك _لأن هناك حديثًا نبويًا يدعمه حتى وإن كان هذا الحديث حديث آحاد، وعليه يرى أنه لا يصح أي رأي بخلاف هذا الحديث لأن الدين اتّباع وليس ابتداعًا، ولأنه لا يأمن أي رأي آخر ناتج عن عقل أو غيره، وهذا هو مذهب أهل الحديث خاصة وأهل السنة عامةً.

والبعض يحكّم عقله ما دام لا يوجد نص قطعي الثبوت والدلالة لأن العقل في رأيه هو الأساس والذي به عرفنا الله وعرفنا رسوله، ونتيجة لذلك يلزم الاحتكام إلى العقل كلما غاب النص القطعي ثبوتًا ودلالةً، وهذا كان مذهب المعتزلة.

ولكن ما الذي جعل هؤلاء يتمسكون بالأحاديث في تلك المسائل العقدية، وأي شيء اضطر الآخرين إلى التمسك بالعقل وإهمال الأحاديث؟

لعل من هذه الأسباب التي ساهمت في التمسك بالأحاديث وبظاهر النصوص الورع والخوف من إعمال العقل في الدين الذي قد يؤدي إلى الاكتفاء بالعقل وإهمال النصوص كلها، كذلك ربما تمسك هؤلاء بالأحاديث خوفًا من الفتنة التي تحدثها أهواء أصحاب العقل ومن المعرف كيف تعددت الآراء والفرق داخل فرقة مثل المعتزلة،

وهذا كله من اختلاف يؤدي إلى تفتت الدولة الإسلامية ويجعلها ضعيفة وعرضة لأطماع الأعداء المتربصين بها ولذلك أظهر أهل الحديث أهلَ الكلام كأنهم امتداد للحضارات وللملل التي أخضعها المسلمون.

أما المعتزلة فإنّ ما دعاهم إلى التمسك بالعقل هو مواجهتهم الفكرية للآخر المخالف، فهذا الآخر الذي كان صاحب حضارة وفلسفة ودين كان يجادل مستخدمًا العقل فكان من غير المناسب أن يُحتجَّ عليه بالأحاديث أو النصوص عمومًا، لذلك بنى المعتزلة دفاعهم على العقل واعتمدوه كدليل يُقدم دائمًا على النص خاصة في الحجاج مع غير المسلمين.

كذلك يمكن لنا أن نقول إنّ التفوق العلمي والحضاري للغرب في العصر الحديث قد أصبح يُوجّه إلى خيارات بعينها في كل المجالات، ومن أجل ذلك سارع الكثيرون إلى التوفيق بين الدين ومقررات الحضارة الغربية وخاصة النظريات والحقائق العلمية، رغم أن العلم لا يمس العقائد أو العبادات ولا يتعرض لما تحويه العقائد هل هو حقيقة أم لا[1].

وقد ظهر هذا الاتجاه المتأثر بالعلوم الغربية والساعي إلى التوافق مع المقررات الغربية عند المدرسة الإصلاحية وبخاصة عند رائدها الإمام (محمد عبده) الذي قدم تأويلات جديدة لبعض العقائد الدينية نقلها لنا تلميذه (رشيد رضا) في تفسير المنار[2].

و(محمد رشيد رضا) هو التلميذ الكبير للإمام (محمد عبده) فهل سيتابع أستاذه في هذا النهج، وإلى أيّ مدى سيخضع في اختياراته العقدية لمقررات الحضارة الغربية التي لا تزال تحدد كثيرًا من الخيارات.

سنعرف الإجابة على هذا السؤال من خلال بحثنا في مسألة (الكرامة) وهي مسألة خلافية قديمة.

(١) انظر محمد حسين هيكل: الإيمان والمعرفة والفلسفة، دار المعارف، القاهرة،الطبعة الثانية، د.ت،ص ٣٤

(٢) قدم (محمد عبده) تأويلا للملائكة والشيطان يفيد أنهم يمثلون قوى الطبيعة انظر محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية١٣٦٦هـ،١٩٤٧م، الجزء الأول، ص ٢٦٧وما بعدها

الخرافة وأثرها على الدين :

أزعج المفكرين المسلمين في العصر الحديث انتشارُ الخرافة وشيوع الجهالات التي كان لها الأثر الضار على صورة الدين الإسلامي فضلا عن مضارها على المسلمين أنفسهم فكانت من أسباب تراجع العقل المسلم وأدت إلى التخلف الحضاري للأمة الإسلامية.

وفي الحقيقة فإن الأديان جميعها مهما يكن من صفاء أصولها، لا تلبث أن تدخل فيها مجموعة من الخرافات التي لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى، وإنما هي تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها للخلود، لهذا نرى أنّ كثيرًا من المسلمين يؤمنون بالسحر، وقلما يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف عن الكنوز المخبوءة وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء، وكذلك شفاء المرضى، واتّقاء الحسد، ومنهم أيضًا من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو غيره، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة، ويلبس كثير من المسلمين والمسيحيين تمائم لترد عنهم ضروباً مختلفة من الشرور[١] .

وهذا ما يقرره الإمام (محمد عبده) حيث يرى أن الخرافات المرتبطة بالدين موجودة عند كل الأمم حتى تلك الأمم التي اتصفت بالتنور والتقدم، حيث إن كثيرًا من أهل العلم في الغرب يعتقد بشفاء الأمراض عن طريق لمس اليد للمريض وغير ذلك، وإن كثيرًا من الفلكيين يعتقد بالتنجيم وبتأثير الأفلاك على أحداث الأرض، وكل ذلك في رأي الإمام لا يقبله عقل أو شرع[٢].

ويوضح (محمد رشيد رضا) شيوع وخطر هذه الطّامّة فيذكر أن كثيرًا من الدجالين في عصره وكثيرًا من المتصوفة الخرافيين، قد عرفوا أن دعوى الكرامات أنجح الوسائل لتأسيس المجد الدنيوي، بامتلاك قلوب الناس وأموالهم، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من اتخاذهم آلهة يعبدون، وأربابًا يُشرِّعون فيُتَّبَعون.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، لبنان، الجزء الثاني من المجلد الرابع (١٣)، ص١٢٨وما بعدها

(٢) محمد عبده:الأعمال الكاملة: الجزء الثاني، في الكتابات الاجتماعية، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق،ط١٤١٤،١هـ،١٩٩٣م،ص ١٥٦

ويلقى (رشيد رضا) باللوم على العلماء الذين لا يمارسون دورهم في التوعية والإرشاد فإنه لو لم يسكت علماء الشريعة على منكرات هؤلاء الكذابين لما وصلوا في إفسادهم إلى هذا الحد حيث تُطبع كتبهم المفسدة للعقائد وتُنشر بين المسلمين، وتُعدُّ من كتب الدين، والكارثة أنه يوجد في كبار علماء الشريعة من هم أشد خضوعًا للخرافات من العوام، ويرى أنه كان يجب على علماء الأزهر أن يؤسسوا جمعية دائمة لنقد الكتب التي تنشر بين الناس، خاصة الكتب التي تمس الدين وتخالف عقائده أو آدابه وأحكامه، وتبين للناس ما فيها من ضلال وتحذرهم منه، ولكن العكس هو الموجود حيث إن الكثيرين من المنسوبين إلى الأزهر يدافعون عن أمثال هذه الكتب وأهلها، ويردون على المصلحين الذين ينكرون عليها، ثم يقدم رشيد رضا تحذيرًا واضحًا خاصة للأزهر خلاصته أن الأزهر إن لم ينهض لمكافحة الدجل والخرافات، ويقوم بدوره في إرشاد الناس وتحذيرهم من هؤلاء الكذابين الذين يدعون الكرامات ويتلاعبون بالعوام، فستكون عاقبته وعاقبة أهله في مصر كعاقبة معاهد الدين ورجال الشرع في تركيا(١).

وتأتينا بعض الإحصائيات دالة على سيطرة الخرافة والخوارق فبعض الإحصائيات تؤكد لنا أن معظم البشر ٧٦% لديهم إيمان بظاهرة خارقة واحدة على الأقل غير مستمدة من الدين وهناك قرابة٩٦% يعتقدون بشيء خارق للطبيعة مستمد من الدين(٢).

وقد أوضح (جوناثان.سي.سميث) أن الاعتقاد بالخوارق والخرافة له مخاطر كبيرة: أولها: تلك المخاطر على المجتمع كما حدث من كوارث النازية التي اعتقدت بتفوق الجنس الآري، وثانيها:شيوع الطب المكمّل والبديل الذي يعتمد على ما يشبه الخوارق والخرافات وله مخاطر كبيرة، وثالث هذه الأخطار: التدين السطحي والعدواني الذي يولد التعصب والحروب كالحروب الصليبية(٣).

وسوف تتضح لنا هذه المخاطر وغيرها عند (رشيد رضا) والتي جعلته يخصص سلسلة مقالات في مجلته المنار لمواجهة الأفكار المغلوطة حول الكرامات.

---

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس والعشرون، الطبعة الثانية، ١٣٢٧هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ص ٧٧٨ومابعدها

(٢)جوناثان سي.سميث: العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي ترجمة محمود خيال، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٥٦٣ ، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص٥٧

(٣)جوناثان سي.سميث: العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي ، ص ٦٧-٧٣

الكرامة في تراث المتكلمين والصوفية :

من المعروف في تراث المتكلمين ما يوضحه (الإيجي) و(ابن خلدون) من أن الموقف العام من الكرامات أنها جائزة عند أهل السنة وواقعة وكذلك عند أبي الحسين من المعتزلة خلافًا لأبي إسحق والحليمي من أهل السنة[١] فالرأي المعروف عن الأشاعرة هو ما أقره (أبو الحسن الأشعري) في (الإبانة) من أن الله يخص الصالحين بآيات تظهر على أيديهم[٢] ، إذن فالآيات أو خوارق العادات تحدث لغير الأنبياء عند أهل السنة ، ولا فرق عند (أبي حامد الغزالي) بين الخوارق التي تحدث للأنبياء وبين ما تحدث لغيرهم إلا التحدي فقط ، وخارق العادة للنبي هو المعجزة ، ولغيره من الصالحين يسمى (الكرامة)[٣] ، وعلى هذا يجوز عند جمهور أهل السنة أن تحدث للصالحين في كل عصر خوارق للعادات مثل المعجزات التي حدثت للأنبياء ولكن دون أن يكون منهم تحدٍ بها! وقد روي البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) خوارق للعادة حدثت للصحابة رضوان الله عليهم ولكنه جعلها كرامة للرسول[٤]، وروى (تاج الدين السبكي) في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) كثيرًا من الكرامات ونسب بعضها للصحابة والكثير لغيرهم وجعل فائدة الكرامة دينية من تربية أو بِشَارَة أو نذارة أو غير ذلك حيث يُؤذن فيه ولا يجوز إظهارها حيث لا فائدة[٥].

---

(١)عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: المواقف في علم الكلام،عالم الكتب – بيروت ،ص٣٧٠، ابن خلدون: لباب المحصل في أصول الدين، تحقيق د.عباس محمد حسن، دار المعرفة الجامعية ،١٩٩٦م، ص١٨١

(٢) أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة،، ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،بيروت لبنان، بدون تاريخ، ص١٢

(٣) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد،دار الكتب العلمية،بيروت ، لبنان،١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م،ص ١٠٧

(٤) جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م ،ص ٤٢ ، روى البيهقي كرامة تسخير الأسد لسفينة مولى الرسول، وكذلك إحياء الحمار الميت لرجل مجاهد من أهل اليمن، وإضاءة عصي الرجلين من أصحاب النبي، انظر:البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق د/عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – دار الريان للتراث،الطبعة الأولى،١٤٠٨-١٩٨٨،ج٦ص ٤٥-٤٨، ٧٧

(٥) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو،ومحمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، دار إحياء الكتب العربية ،ص ٣١٥

وعند (ابن تيمية) أن من اجتمع له الدين علمًا وعملا وجب له خرق العادة إذا طلب ذلك، وتحدث الخوارق أيضا للفاسدين[١].

وعند الشيعة أن للأئمة الأوصياء خوارق/معجزات تدل على صدقهم وكونهم حججا لله[٢]، وتروي الشيعة معجزات لجميع الأئمة الاثني عشر كما في كتاب (الطبري) الشيعي (نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة)[٣].

والصوفية مجمعون على حدوث الكرامات ودليلهم ما ورد في القرآن من قصة مريم عليها السلام وغيرها وماورد من الأخبار عن الصحابة[٤] وأورد (السبكي) استدلالات المعتزلة على إنكار حدوث الكرامات ورد عليها مثبتًا وقوع الكرامات، وجعل (السبكي) الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تتميز بدعوى النبوة ووجوب الإشهار وتجوز أن تقع بجميع خوارق العادات[٥].

وذكر (السبكي) من أنواع الكرامات خمسة وعشرين نوعًا مثل إحياء الموتى، ومحادثة الموتى، وانفلاق البحر، وانقلاب الأعيان، وكلام الجمادات والحيوانات، وشفاء، وطيّ الزمان ونشر الزمان، واستجابة الدعاء، وإمساك اللسان عن الكلام وانطلاقه، والإخبار بالمغيبات، والصبر عن عدم الطعام، ومقام التصريف، وتناول الكثير من الطعام..[٦].

إذن فالكثيرون لا يَقْصرون خرق العادة للأنبياء فقط، وإنما يجعلون ذلك حاصلا لغيرهم وخاصة من الصالحين الملتزمين بالشريعة وقد أوضح (جمال نصار) في كتابه (المعجزة والشريعة رؤية معاصرة) فائدة ووظيفة الخوارق والعجائب

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم،الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م ،ج١١،ص ٣٣١وما بعدها

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار،الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ ه. ١٩٨٣ م مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان – الجزء٨٩، ص١٥٤

(٣) جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، ،ص ١٠٧

(٤) أبوبكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ت٣٨٠هـ: التعرُّف لمذهب أهل التصوف،تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ،١٩٩٣م، ص ٧٩

(٥) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو،ومحمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، دار إحياء الكتب العربية ،ص ٣١٧

(٦) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى،ص ٣٣٨ –٣٤٤

للمتمسك بالشريعة فهي تزيده ثقة ويطمئن قلبه بأن هذه الشريعة من الله ومرتبطة بخالق هذا الكون(١).

ولكن هل يمكن أن تحدث كل الخوارق للصالحين بمعنى أنه يمكن أن تحصل لهم خوارق مثل خوارق الأنبياء ؟ في الحقيقة إن هناك من يجوّز حدوث جميع الخوارق للأولياء حيث قالوا ما كان معجزة للنبي يجوز أن يكون كرامة للولي، ومعنى هذا أن يجوز للولي الصالح أن يحيي الموتى وينشق له البحر أوالقمر وأن يُسخر له الجانّ إلى غير ذلك من المعجزات الكبرى للأنبياء. ولكن هناك من يضيق في ذلك ومن هؤلاء (أبو القاسم عبدالكريم القشيري) حيث صرّح قائلا "واعلم أنّ كثيرًا من المقدورات يُعلم اليوم قطعًا أَنَّهُ لا يَجُوز أَن يظهر كرامة للأولياء وبضرورة أَوْ شبه ضرورة يُعلم ذلك، فمنها حصول إنسان لا من أبوين وقلب جماد بهيمة أو حيوان وأمثال هذا كثير"(٢)، ورغم ذلك روى (القشيري) كرامات لكثير من الأولياء هي أعجب من كثير من المعجزات، ولكن (ابن حجر العسقلاني) تغافل عن هذه الرويات وأعجبه قول (القشيري) السابق وجعله أعدل المذاهب، ثم نبّه على أن حدوث الخوارق لا يدل بالضرورة على الولاية أو الصلاح كما شاع بين العامة لأن الخارق يحدث أيضًا للساحر والكاهن(٣).

ويبدو لي أن هذا أيضًا رأي (الكلاباذي) وكثير من الصوفية فهو يجعل الكرامة من باب الممكنات في الواقع وإن كانت تخرج عن العادات مثل إجابة دعوة أوقوة على فعل أوكفاية مؤنة، أما معجزات الأنبياء فهي مما يخرق القوانين والسنن الكونية مثل إخراج الشيء من العدم إلى الوجود وقلب الأعيان(٤).

هناك اتجاه آخر في التراث قد أنكر خوارق الطبيعة لغير الأنبياء وفي مقدمة هؤلاء المعتزلة الذين رأوا أن القول بخرق العادة لغير الأنبياء (الكرامة) يُحدث التباسًا مع المعجزة ، فأنكر (القاضي عبد الجبار) صحة الروايات التي تنسب حدوث الكرامات

---

(١) د/جمال نصار حسين: الشريعة والمعجزة رؤية معاصرة، بحث في مجلة التربية قطر،سبتمبر٢٠٠٤، رقم العدد١٥٠، ص ٢٣٨

(٢) أبو القاسم عبدالكريم القشيري: الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الإمام عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف،ج٢، ص٥٢٣

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، الجزء السابع، ص٣٨٣

(٤) الكلاباذي، التعرُّف لمذهب أهل التصوف،ص٨١

للصحابة مؤكدًا أن خوارق العادة لا تحدث إلا للأنبياء المرسلين ولا تحدث للصالحين أو غيرهم[١] ، وقد استنبط (الزمخشري) إبطال الكرامات[٢] من قوله تعالى"عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا" (الجن ٢٦:٢٧) ، وكان (ابن حزم) ممن أنكر حدوث الخوارق لغير الأنبياء مستنكرًا الرأي القائل بجوازها، حيث مال إلى رأي المعتزلة مؤكدًا أنه لا يقلب أحد عيناً ولا يحيل طبيعة إلا الله سبحانه ولأنبيائه فقط سواء تحدوا بذلك أو لا ، وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لصالح ولا لساحر ولا لأي أحد غير الأنبياء، وهذا عنده مبدأ قرآني مأخوذ من قوله تعالى" وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"(الأنعام١١٥) وقوله عز وجل "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ" (البقرة٣١)! فحسب فهمه لهذه الآيات أن كل ما في العالم قد رتّبه الله سبحانه الترتيبَ الذي لا يتبدل وأن الله سبحانه أوقع كل اسم على مسماه وعليه فلا يجوز أن يوقع اسمًا من هذه الأسماء على غير مسماه الذي أوقعه الله تعالى عليه، لأنه يكون تبديلا لكلمات الله تعالى، وبذلك فلا تحدث خوارق العادات إلا للأنبياء فقط أو في زمانهم سواء كان هذا لمسلم أو لغيره لأنه حينئذ يكون آية للنبي، أما بعد زمان النبي فلا تحدث خوارق العادات لأي أحد كان صالحا أو ساحرا أو غيرهم، فلا يجوز قلب الأعيان وإحالة الطباع إلا في وقت النبوة فقط، لأن ذلك ممتنع عقلا ولا دليل على جواز وقوعه شرعًا بعد زمن النبوة[٣].

مفهوم الكرامة عند رشيد رضا:

يرى (رشيد رضا) أن الخوارق قسمين[٤]:

القسم الأول : صناعي يُتوصل إليه بالصنعة والعلم وإن خفي على أكثر الناس وهو في الحقيقة ليس خرقًا للنظام الطبيعي ولكنه يبدو لمن لا يعرف علته وسببه أن فيه خرقًا للطبيعة ونظامها ويذكر أن من هذا القسم السحر والشعوذة، ولكن كان يجب عليه

(١) القاضي عبدالجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٥ التنبوات والمعجزات، تحقيق محمود محمد قاسم ، ص٢٤١ومابعدها

(٢) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق عبد الرازق المهدي، ج٤ ، ص٦٣٤

(٣) ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني ،مكتبة السلام العالمية، ج٥،ص ٢، ومابعدها

(٤) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص ٥٤

أيضًا أن يذكر استحضار الأرواح ضمن هذا القسم أيضًا لأنه ذكر في موضع آخر أن الغرب يشتغلون به ويحادثون أرواح الموتى[١] ولا ريب أن محادثة أرواح الموتى أمر خارق وعجيبة كبيرة فلابد أن تدخل ضمن هذا القسم الصناعي.

أما القسم الثاني : فليس صناعيًّا ولا يُتوصل إليه بالعلم ومن هذا القسم معجزات الأنبياء، ويضاف إليها كرامات الصالحين على خلافٍ فيها.

إذن الكرامات هي من الخوارق التي يمكن أن نسميها خوارق إلهية ليست في استطاعة البشر وهي تحدث للصالحين، بخلاف المعجزة التي تحدث للأنبياء، وبخلاف السحر والشعوذة التي هي خوارق صناعية تدخل ضمن قدرة واستطاعة الإنسان.

والاعتقاد بالكرامة ليس من أصول الإيمان[٢]، ولا يوجد في الكتاب والسنة دليل على طلب حصولها ، ولا على مطالبة الناس بالإيمان بها[٣] .

وقد أعجب رشيد رضا بكلام (ابن عربي) عن الكرامة ومن ذلك رأيه في أن الخوارق التي تحدث للصالحين قد تكون مكرًا واستدراجًا ، وعلى ذلك لا يصح أن تسمى كرامة إلا إذا كانت ناتجة عن استقامة أو تنتج استقامة[٤]، ورغم أن هذا الكلام للشيخ ابن عربي يخالف رأي الجمهور الذين يرون أن أية خارقة تحدث للصالحين هي كرامة إلا إن رشيد رضا يعرض هذا الرأي لابن عربي ويرى أن هذا التصور للكرامة يخفف من الغلو في الكرامات[٥] .

والكرامات نوعان:

النوع الأول: كرامات حسية: كالمشي على الماء وطي المكان وغيرها وهذا النوع هو ما يعرفه العوام، وهذا النوع يجب على الولي ستره، ولكي يكون كرامة لابد أن يكون عن استقامة أو يؤدي إلى استقامة.

---

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١٩٠

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص١٨٦

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص٤٠٨

(٤) محيي الدين ابن عربي ت٦٨٣: الفتوحات المكية ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين،منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م، الجزء الثالث، ص ٥٥٣

(٥) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص١٨٤، ص١٨٥

النوع الثاني: كرامات معنوية، ولا يعرفها إلا الخواص وهي تتمثل في الاستقامة وحفظ الشريعة والأخلاق والعلم بالله ، وهذه هي الكرامة الحقيقية(١).

ويرى (رشيد رضا) أن الكرامات المعنوية لا ينكرها أحد وكلها نفع وليس فيها ضرر ولا خداع، والولي المسلم لا يليق به أن يعوّل إلا على هذا النوع لأن معجزة نبي الإسلام كانت معنوية(٢).

وينقل (رشيد رضا) تعريف الجمهور للكرامة بأنها" الأمر الخارق للعادة يظهر على يد العبد الصالح ، وهو مَن يقوم بحقوق الله تعالى وحقوق العباد"(٣)، فهذا كما ذكر هو تعريف الجمهور للكرامة فهل يتابع (رشيد رضا) الجمهور في رأيهم حول الكرامة؟

لا كرامة معينة لشخص معين :

كان من رأي رفاعة الطهطاوي أنّ خرق العادة قد حدث لكثير من الأولياء(٤)، وكان الإمام (محمد عبده) يرى أن صدور خارق للعادة على يد غير نبي أمر جائز عقلًا، ولكنه ينبه على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أى ولي ويستثني ما ثبت عن الصحابة(٥).

ويرى (محمد فريد وجدي) أن الأولياء أصحاب الأرواح العالية لهم سلطة على عالم المادة لسمو أرواحهم وتظهر هذه السلطة أحيانًا بإيقاف فعل النواميس العادية والتأثير على المادة تأثيرًا خاصًا وهو ما يسمى بالكرامة وفي القرآن ما يدل على حدوثها للصالحين(٦).

ويتابع (رشيد رضا) أستاذه الإمام فيقول إن الكرامة جائزة ولكن لا يجب على أحد أن يعتقد بكرامة معينة لأحد معين، وهذا في رأيه موافق لقاعدة كتمان الكرامة، وبذلك فإن هذه الحكايات التي تُثبت لأشخاص معينين كرامات لا نهاية لها لا يُوثق بها

---

(١) محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية ، الجزء الثالث، ص ٥٥٣ومابعدها، وانظر محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، المجلد السادس ، ص ١٨٤

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، الطبعة الثانية، ص١٨٤

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد الثاني، ص ٤١٧

(٤) رفاعة رافع الطهطاوي: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر القاهرة ،ط١، ١٤١٩هـ، ص١٤١

(٥) محمد عبده: رسالة التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى،١٤١٤هـ،١٩٩٤م، ص ١٨٣

(٦) محمد فريد وجدي: الإسلام في عصر العلم، ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ،ص ٥٨٤

ولا يعول عليها والصواب أن تقاس على أمثالها عند أهل الملل الأخرى فإن سنة الله فيهم وفينا واحدة، فمن صحت عنده رواية شيء منها بعد التحري فليعرضه على وجوه التأويل(١).

ورغم قوله بقاعدة كتمان الكرامة إلا إنه قد ذكر لنفسه كرامات عديدة وبشكل تفصيلي تحت عنوان (المكاشفات)(٢). فهل هذا تناقض منه أم هو تراجع عن موقفه ؟ هذا ما سوف نعرف إجابته بعد قليل.

وهناك أمر آخر وأساسي في معتقد الكرامات عند رشيد رضا، وهو أن الكرامة لا تخرق السنن الكونية والنظم الطبيعية الثابتة _ وهو ما سنعرض له بشكل أكثر تفصيلًا في الصفحات التالية_ ، فهذه السنن الكونية الثابتة هي ما أرشد إليه القرآن الكريم في قوله تعالى" فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً " (فاطر: ٤٣) وقد راعت أوربا هذه السنن الكونية فحازت التقدم والرقي(٣) .

بيان (رشيد رضا) للاعتقاد الخاطئ في الكرامات وبيان مفاسده على الدين والمجتمع.

إن الشيخ (رشيد رضا) قد أهمّه ذلك الاعتقاد الخاطئ للعوام في الكرامات ورأى مفاسده في غاية الشر على الأمة، لأن للاعتقاد بالخوارق تأثيرًا في الأخلاق والآداب وكذلك في العادات وطرق الكسب والمعيشة، ويمكن أن نقول بصيغة أخرى إن لها التأثير العظيم في سير الأمم، ذلك لأن رسوخ هذا الاعتقاد في أمة وزواله من نفوس أمة هو السبب والعلة في التقدم والتأخر(٤). ولذلك قام رشيد رضا بحملة شديدة على هذه التصورات الخرافية عن الكرامة في حين كان الشيخ يوسف النبهاني (ت:١٩٣٢) من الغلاة في الاعتقاد بالكرامات حتى إنه راح يجمع الغث والسمين من هذه الكرامات في كتاب أسماه (جامع كرامات الأولياء)(٥)، ومن أجل ذلك كان يعُدُّ

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ١١٦

(٢) انظر : محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثالث والثلاثون، ص٣٦٧وما بعدها

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني، ص٣٠٩

(٤) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الخامس، ص٩٣٩، وما بعدها

(٥) انظر يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عوض،الناشر:مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات (الهند)، الطبعة الأولى ٢٠٠١م

الأفغانيَّ والإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا من أعداء الصالحين لحملتهم على هذه الكرامات التي هي في رأي الشيخ يوسف النبهاني برهان الولاية(١).

وفي نقاط نوضح ذلك التصور الذي يرفضه رشيد رضا عن الكرامات والذي قد تسبب في كثير من الأضرار لأمتنا العربية والإسلامية :

١ – يظنُّ العوام أنّ الكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية.

٢ – يعتقد العوام أن الصالحين يفعلون الكرامات باختيارهم فى حياتهم وبعد مماتهم متى شاءوا.

٣ – يلازم العوام قبور الصالحين لدعائهم والاستغاثة بهم ويتقرّبون إليهم بالنذور والقرابين معتقدين أنهم يقضون حوائجهم.

٤ – يعتقد العوام أن باستطاعة الصالحين فعل كل شيء وكأنهم آلهة فقال بعضهم فى كتاب مطبوع: إن فلانا من الأقطاب يميت ويحيى، ويسعد ويشقى(٢).

وقد أظهر (رشيد رضا) مفاسد هذا الاعتقاد الخاطئ الذي صوّر الأولياء متحكمين في الكون وينقضون قوانينه باستمرار ، فمن ذلك :

١ – أنه تسبب في تكذيب كثير من الناس للمعجزات الثابتة للأنبياء، حيث قاسوا المعجزات المنقولة على ما سمعوه من خوارق يرويها العوام دونما تمحيص وهي في حقيقتها من قبيل السحر والشعوذة(٣) .

٢ – إن هذه الخوارق الكثيرة تمثل خطورة على الدين؛ لأن القول بأن الدين يعتمد في إثباته وتثبيته على هذه الخوارق / الكرامات قول خطير لأنه إذا ثبت بطلان هذه الخوارق انهدم الدين في نفوس أتباعه وهذا ما يسعى إليه الملاحدة دائمًا وهو محاولة نقض هذه الخوارق(٤).

٣ – ومن أكبر مضار هذا الاعتقاد الخاطئ أنه زلزل القاعدة الكبرى للعقائد وهي توحيد الله تعالى ومن ثم أوقع هذا الاعتقاد الخاطئ الناس في ضروب من الشرك الأصغر والأكبر، حيث شاع الشرك في التماس المنافع أو دفع المضرات من غير الله

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثالث والثلاثون، ص٣٦٧

(٢) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،الطبعة الثالثة،١٤٠٦هـ ص٢٣٥

(٣) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص٢٣٦ ،٢٣٨

(٤) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص ١٢

تعالى، وبواسطة غير سننه المعروفة التي أقام بها نظام الكون وكذلك جعل الانتفاع بها عامًّا لجميع خلقه(١).

٤- ثم إن العامة يبيحون لمن يجري على يديه شيء من تلك الغرائب جميعَ المنكرات، فهم يُحكِّمون خوارقه في حاله من الاعتقاد والعمل والأصح أن يُحكَّم حاله في خوارقه(٢).

٥ - ومن مضرات هذا الاعتقاد انعدام الثقة بالعقل وقضاياه ونظام الكون وسننه، فضعفت بذلك المدارك، وصار معظم الناس يخضع للدجالين، ويؤمن بالمشعوذين والعرافين ومن أنكر عليهم شيئًا من ذلك اتهموه بالفلسفة ورموه بفساد العقيدة؛ فالعرافة والكهانة عندهم إيمان، والحكمة (الفلسفة) كفر أوعصيان(٣).

٦ - الخوارق/الكرامات تمثل خطورة على العقل البشري؛ فإن من ينشأ في دين يجوِّز وقوع خرق السنن الكونية آنًا بعد آن وفي كل وقت من أي أحد فهذا يكون عقله دائمًا أسير الأوهام والخرافات؛ بل يكون ألعوبة في أيدي الدجالين والمشعوذين، الذين يلبَسون ثياب الصالحين، لذلك ينتشر القول بالخوارق ويكثر مدّعُوها في البلاد التي خيَّمت فيها الجهالة، وعُرِفَ أهلُها بالغباوة والبلادة(٤).

٧ - ومن هذه المضرات أن أكثر الأمة قد تركوا الاهتمام بأمورهم العامة اعتقادًا منهم بأن هذه الأمور قد وكلها الله تعالى إلى رجال الغيب(الأولياء)! فلا يحدث لهذه الأمة شيء إلا ما قرروه في الديوان الأعلى، وقد كان من أسباب خضوع بعض البلاد الإسلامية للأجانب قول بعضهم: إنه علِم من أهل الله أنّ الله قد سلّط الأجانب على تلك البلاد عقوبة لها(٥).

٨ - كذلك من مضار الاعتقاد بهذه الكرامات أنها حجاب دون العلوم الكونية في نظر العوام وذلك أنهم يرون العلماء يحتقرون الدجاجلة الذين يدَّعون هذه الكرامات

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ١١١

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص٥٨

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١١٣ ، المجلد الرابع ص ٧٦٠

(٤)محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص ١٣

(٥) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١١٤

ويحتقرون الذين يخضعون لهم فينسبون ذلك إلى العلم، ويمقتون العلم ومنهم من يجعله بريد الكفر[١].

إذن فقد كان هذا التصور الخاطئ للكرامات مضرة كبيرة لهذه الأمة في دينها ودنياها، حيث تشوّه التوحيد في عقول أغلب الناس ووقعت العداوة للعقل والبغضاء للعلم وهذا الذي تسبب في تخلف هذه الأمة، بينما ساد في الغرب بأن الاعتقاد بهذه الخوارق له مضرات كبيرة على الإيمان بل هو عقبة كبيرة في طريق الإيمان وهذا في رأي رشيد رضا هو اعتقاد الخواص في الغرب والشرق لأنه الملائم للعقل الحديث وهو كذلك يوافق القرآن الكريم[٢].

إنّ هذا السيل من الكرامات والتي يرويها الصوفية والعوام قد أدت إلى طامات كبرى في حياة هذه الأمة وأدت في النهاية إلى ضعف التصوف ثم نفور الناس من المتصوفة[٣].

لا خوارق كونية بعد النبي صلى الله عليه وسلم

يرى (رشيد رضا) أن هناك سنناً للكون وقوانين ثابتة وهي لا تتغير ولا تتبدل محاباة لأي أحد، ولا يمكن أن نثبت شيئًا مخالفاً لذلك إلا ببرهان يدعمه العقل والحس وأن يكون هذا الأمر لحكمة واضحة[٤]، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن تحدث خوارق كونية بعد النبي الخاتم فقد أُغلق بموته باب المعجزات والخوارق التي تخرق النظام الطبيعي للكون ، وأوضح خلاصة رأيه في ذلك كالآتي[٥]:

(١) إن الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام، وسنن مطـــردة ربط فيها الأسباب بالمسببات.

(٢) إن سنن الله تعالى فى إبداع خلقه لا يحيط بها علما غيره، وكلما ازداد البشر فيها نظرًا وتجربة، ظهر لهم من أسرارها ما لم يكونوا يعلمون، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون.

---

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١١٤ ،١١٥

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١١٥

(٣) محمد جواد مغنية : معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، مكتبة الهلال بيروت،ط٢ ،١٩٨٢م ص ٢٥٤

(٤) انظر محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الجزء الحادي عشر، ص ٢٤١

(٥) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ، ص٢٤٥ – ٢٤٩

(٣) إنّ الأصل والقاعدة فى كلّ ما يحدث فى العالم أن يكون جاريًا على نظام الأسباب والمسببات، وقد أخبرنا الوحي بأنه لا تبديل لها ولا تحويل، فكلّ خبر عن حادث يقع مخالفًا لهذا النظام فالأصل فيه أن يكون كذبًا، فإن كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التى يجهلها المُخبر.

(٤) إن آيات الله (الخوارق) التى تجرى على غير سننه لا يثبت العلم بها إلا بدليل قطعى، وقد كان من حكمته أن أيّد بعض المرسلين بشيء منها لإقامة حجتهم، وقد انقطعت هذه الآيات ببعثة خاتمهم، وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوّة برسالته، وجعل ما أوحاه إليه آية مستمرة ودائمة، وهداية عامة للبشر أجمعين مدة بقائهم في الدنيا.

ولو كان للبشر حاجة بعد القرآن والنبي إلى الخوارق _كما يدّعي المفتونون بالكرامات _ لما كان لختم النبوّة معنى، وإذ كان لا يجب على مسلم أن يؤمن بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد النبي الخاتم فلا يضرّ مسلما فى دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق أكثره كذب، وبعضه صناعة علم، أو تأثير نفس، أو شعوذة سحر، وأقله من خواص الأرواح البشرية العالية، وعلامته أن يكون علما صحيحا يوافق النقل والعقل، أو عملا نافعا مشروعا، وأن يكون من صدر عنه مؤمنا صالحا، فكل ما ينقله المتصوّفة مخالفا لذلك من التصرف الضار بالناس فهو إن صح من تأثير الأنفس الخبيثة كالإصابة بالعين والتنويم المغناطيسى الضار لا كله.

٥ – الإسلام يرفض الخوارق/ الكرامات، ويؤكد ثبات القوانين لأن زمن الوحي والمعجزات قد انتهى به فلن يعود، وأن لله في الخلق سننًا لن تتغير، فثبت بهذا أن الإسلام يتفق مع العلم الحديث، فهو يحكم بأن زمن المعجزات قد مضى ولا يُكَلَّف الآخذ به بأن يعتقد بخارقة على يد أحد الناس بعد الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام "[١].

وهكذا فإن كل ما يروى من الخوارق بعد النبي الخاتم ليس فيه خرق أو تعطيل للنظم الطبيعية وإن ظهر ذلك للناس، ولكن بعد النظر والتقصي تبدو الحقيقة المؤكدة وهي ثبات النظام الطبيعي واطّراده رغم كل ما ينقل من مرويات هنا وهناك.

ويتضح مما سبق تصميم (رشيد رضا) على متابعة العلم الحديث وإظهار الإسلام متوافقا مع الحتمية التي تبناها العلم الحديث، حيث ظهر هذا التصور في

(١)محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص ١٧

صورته الكاملة على يد نيوتن (١٦٤٢– ١٧٢٧م)، والذي اعتبر أن القوة الجاذبة هي التي تمسك بالكون الذي لا يداخله أي فاعل خارجي، وإنما يسير وفق قوانين خاصة ترجع إلى المادة والحركة الذاتية لها، وقد أقام نيوتن الفيزياء على أسس رياضية مما جعل آراءه تبدو يقينية، ولذلك أيقن الجميع أن نيوتن اكتشف حقيقة هذا الكون؛ وهو أنه شُكِّل على هيئة آلة ميكانيكية ضخمة مغلقة على ذاتها من مادة وطاقة (قوى) تسير تلقائيا بواسطة عللها الداخلية، وتبعا لقوانينها الخاصة في مسار صارم، تُفضي كل مرحلة من مراحلها إلى المرحلة التالية، ويؤذن حاضرها بمستقبلها(١).

ومن تلك اللحظة بدأ استبعاد التدخل الإلهي في العالم، وانتشر التفسير المادي الطبيعي وأصبحت الميكانيكية الحتمية هي النظرية التي يعتنقها الباحثون في الطبيعة، واتخذ مبدأ (السببية) موقع العمود الفقاري في العلم الحديث فأصبحت مهمة العلم هي تعليل كل الظواهر وتحديد علة كل حدث، أما التسليم بحدث بغير علة فلا يعني إلا إنكار العلم به وتتلخص قوانين العلم في إحكام علاقة العلة بالمعلول .. مما يجعل الطبيعة متصفة بالاطراد أي حدوث أحداثها على وتيرة واحدة لا تتغير ولا تتذبذب في الماضي كما في المستقبل، وبفضل العليّة وما تضفيه من اطراد على الطبيعة كان القانون العلمي ذا عمومية مطلقة، ومادام هو قانون صادق فلا يشذ عنه شيء، وتغدو الضرورة تحكم الطبيعة بفضل العلاقات الداخلية بين أحداثها بين العلة المعلول، وتسير أحداث الكون في تسلسل علّي يجعله أشبه بالسلسلة المحكمة الحلقات تفضي كل حلقة إلى لاحقتها مثلما نشأت عن سابقتها، فيغدو الكون نظاما مغلقا مساره مرسوم منذ اللحظة الأولى في تاريخه(٢).

كل الخوارق تجري وفق السنن الكونية وإن لم يُعرف سببها وعلتها

ونتيجة لما سبق يصرُّ رشيد رضا على أن جميع ما يحدث للصالحين مما ليس معهودًا ويبدو للناس خارقًا للعادة هو في الحقيقة ليس خارقًا للنواميس الكونية وإنما يحدث وفق السنن والنظام الكوني، فيقول"وإنني لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها ، ولكن بيّنت أنها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير أو تبديل أو تحويل ،

(١) يُمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، ضمن سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ديسمبر ٢٠٠٠، ص ٨٠

(٢) يُمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين ص ١٠٢

لأن الله تعالى أخبر بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول، وإنها لا تكون معتادة كأنها صنعة بيد الولي"[١].

ومن ثمَّ فإن ما يحتج به المحتجون من الكرامات التي وردت في القرآن الكريم لا تخرج عن السنن الكونية وذلك مثل ما أكرم الله به أم موسى عليه السلام من الإلهام الصحيح ، وكذلك ما أكرمت به السيدة مريم _ عليها السلام _ من كلام الملائكة لها ، حيث يرى رشيد رضا أنه ليس في شيء من هذين الأمرين مخالفة لسنن الله تعالى في الخلق ، ذلك لأن الإلهام لا يزال يقع في كل عصر لأصحاب النفوس العالية ، فهو كرامة اختصهم الله بها من دون سائر الناس ، وأما كلام الملائكة فلم يثبت لغير الأنبياء بوجه قطعي إلا لمريم عليها السلام، فإن كانت غير نبية فهو كرامة لها تدل على جوازه لغيرها ، وورد في بعض الآثار الظنية وقوع ذلك لغيرها ، ويمكن أن يكون كلام الملائكة لغير الأنبياء من قبيل الإلهام ، وأما الآيات الأخرى فإنها توجد في كل عصر ويسميها الفلاسفة (فلتات الطبيعة) والمؤمن يستدل بها على قدرة الله تعالى ، ولا يستنكر أن يكون لها أسباب خفية لم يطلع الله تعالى عليها عباده : { وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (الإسراء : ٨٥) [٢].

وعن الأحاديث التي روت أخبار كرامات الصحابة يرى رشيد رضا أنّ كثيرًا منها غير صحيح كحكاية نداء عمر لسارية وإلقاء خطابه في النيل ليفيض، أما ما صحّ فليس فيه خرق للطبيعة أو تعطيل لسنن الكون وإنما هو من باب إجابة الدعاء والإلهام والبركة[٣] أو تأثير نفس في نفس فهو عنده من السنن الإلهية[٤].

وعلى ذلك فيجب على مَن يرى بعينه خارقةً أو جاءته متواترةً وعلم أنها ليست خداعًا، وعلم أنّ صاحبها ليس من أهل التلبيس والشعوذة، فإن له أن يقيسها على ما قد عُرف تأويله بأن يقول: إن كثيرًا من الخوارق كان يُظن أنها خارجة عن سنن الكون ثم ظهر أنها لم تكن شاذة عن تلك السنن الإلهية، وهذا الذي أراه هو مثل تلك في

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الحادي عشر، ص ٩١٠

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني، ص ٤٨٨وما بعدها

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني، ص ٥٤٨-٥٥٢

(٤) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني، ص ٦٥٩وما بعدها

ذاك الزمان، فيجوز أن يظهر له مثل ما ظهر لها من السبب، وتزول الغرابة ويبطل العجب[١].

ويرى رشيد رضا أن هذا ما يجب أن نفعله دائمًا مع الكرامات لأن ذلك هو الذي عليه جميع العقلاء في هذا العصر الذين يتوقعون ظهور علل وأسباب جميع الغرائب التي حدثت في العالم حتى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[٢].

إذن فلا حقيقة للخوارق/الكرامات ؛ حيث إن العلم قد كشف الستار عن أكثر هذه الخوارق ، فتبين من الاستقراء أن منها ما له أسباب علمية صحيحة كان يعرفها بعض الناس فيكتمها عن الآخرين لما يكون له بها من السلطان عليهم، ومنها ما هو حيل وشعوذة [٣] .

وهكذا فإن كل ما حدث ويحدث ويبدو وكأنه خوارق للنظام الطبيعي من معجزات أو كرامات إنما هو في حقيقته ليس خارقًا للنظم الكونية وإنما يحدث حسب الأسباب والعلل الكونية ولا يتجاوزها بأي حال، ولكن لا يظهر لنا هذا إلا بعد حين أي بعد تقدم العلوم التي تكشف ما كان خافيًا وتوضح ما كان غامضًا.

ولكن من العجيب أن (رشيد رضا) يجعل استحضار الأرواح لا يُعد خرقًا للسنن الكونية بل هو عنده خرق للعادة فقط فإن كل إنسان _حسب قوله_ لديه روح قوية يستطيع مخاطبة الأرواح التي تفارق أجسادها ، وهو في ذلك متابع للغربيين لأنه يذكر أن للغربيين في هذا العصر عناية باستحضار الأرواح ، وأنه يُروَى عنهم في استحضار الأرواح ومكالمة الموتى أضعاف ما روي عن الصوفية من الوقائع[٤].

ومن هنا يتضح تأثُّر رشيد رضا بمقررات الغرب ولا يزال متابعًا لهم يثبت ما أثبتوه وينفي ما ينفونه فإذا رفضوا خرق السنن الكونية سواء بالمعجزة أو الكرامة تابعهم في ذلك وإذا رأوا أن الاعتقاد بالخوارق يضر الدين وينافي العلم تابعهم أيضًا، وإذا جاء عنهم أنهم يستحضرون أرواح الموتى ويحادثونهم زعم أن هذا ليس خرقًا للطبيعة وإنما هو علم له أصوله ومبادئه.

---

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ٥٨،٥٩

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ٥٨،٥٩

(٣)محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص ١٣_١٤

(٤) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص ١٩٠

ما يظهر أنه تراجع من رشيد رضا عن موقفه من الكرامات

يبدو أن رشيد رضا قد تراجع شيئًا ما في أواخر حياته وخفف من موقفه تجاه الكرامات والخوارق فبينما أنكر خرق الكرامات للنظم الطبيعية في البداية وخاصة في حياة الأستاذ الإمام، حيث أخرج المجلدات الأولى من مجلة المنار التي حمل فيها على فكرة الكرامات لاسيما التي يزعم دعاتها أنها تخرق قوانين الطبيعة ، لكن بعد وفاة الإمام هدأت تلك الحملة وتراجع رشيد رضا خطوة للوراء ، فمن المعروف أنه صار أكثر سلفية وأبعد عن نهج الأستاذ الإمام ، ونلاحظ هذا التغيير في المجلد الثاني والثلاثين للمنار والذي نشر عام ١٩٣١م وذلك في مقال تحت عنوان (إلحاد في القرآن ودين جديد بين الباطنية والإسلام) والذي رد فيه على الأستاذ(محمد أبوزيد) صاحب تفسير(الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) الذي ذكر في تفسيره أن السنن الكونية لا تبديل فيها ولا تغيير ولذلك أوّل المعجزات تأويلات غاية في الشذوذ[١] فما كان من (رشيد رضا) إلا أن ردَّ عليه مؤكدًا أن الله هو خالق الخلق والسنن وأنه لا يزال يحدث في العالم وفي كل الأزمان خرق لهذه السنن وهو ما يسميه العلماء فلتات الطبيعة، ومن العجيب أن هذا المفسر قد اعتمد في إنكاره للخوارق على تلك القواعد التي بناها (رشيد رضا) من قبل في (مجلة المنار) وفي (تفسير المنار) وهذا ما أشار إليه (رشيد رضا) نفسه[٢]، ورغم أن رشيد رضا قرّر أن جميع المعجزات والكرامات لا تخالف السنن الكونية وأنها تجري وفق سنن لا يدركها القوم في عصر ولكنها تتكشف بعد ذلك مع تقدم العقل البشري والعلم رغم أن ذلك كان رأيه إلا إنه وفي أثناء رده على (محمد أبوزيد) قال إن هذه المقولة هي مقولة الماديين والباطنية والملاحدة![٣] ، وراح يؤكد أنه ليس هناك شيء مطّرد في السنن الكونية بمعنى أنه لا يوجد شيء ثابت لا يمكن مخالفته أو خرقه إلا قليل من الضروريات مثل قولهم (النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان)، ثم أكد أن النظريات العلمية لا تلبث أن تتغير وتتراجع أمام

(١) محمد أبوزيد: الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤٩هـ، انظر تأويله لموت العزير مائة عام بأنه نام ليلة ظن أنها مائة عام ص٣٥، وتأويله لكلام المسيح في المهد بأنه كلام في مرحلة الصبا أو التمهيد ص٤٤، وأول كل معجزات الشفاء للمسيح بأنها شفاء روحي ص٤٥، وزعم أن إبراهيم عليه السلام لم يُلقَ في النار ص٢٥٦

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الحادي والثلاثون، ص ٦٨٣ وما بعدها

(٣) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الحادي والثلاثون، ص٧٦٤

نظريات جديدة مثل ما حدث مع نظرية نيوتن عن الجاذبية حيث تراجعت أمام النسبية العامة لأينشتاين وكذلك تراجعت نظرية التطور تبعًا لتراجع النظرية الميكانيكية التي قامت عليها[١] .

وهذا التراجع عن موقفه القديم يرتكن أيضًا إلى العلم الذي تغيرت نظرياته، وهذا يؤكد أن (رشيد رضا) يسير وفق مقررات العلم في عصره فهو يدور حيث دار العلم، فإنه لما كان العلم يقوم على الحتمية التزم ذلك وقرر أن الكرامات لا يمكن أن تخرق النظام الكوني الحتمي، وعندما ظهرت النسبية وتراجعت الحتمية الميكانيكية عندئذ لم ينكر أن هناك كرامات خارقة للنظام الكوني الذي أصبح غير حتمي وغير ضروري. وذلك بعد اكتشاف الذرة وتحطيمها واكتشاف حركة الذرات بوجه خاص فقد ألقى العلم بمبدأ الحتمية في سلة المهملات، وجاءت نسبية (آينشتين) فهدمت العليّة التي كانت أساسا للقول بميكانيكية الكون، وأكدت بيولوجيا القرن العشرين خطأ نظرية دارون؛ وهكذا تمت الإطاحة بفيزياء نيوتن وانهار التصور الميكانيكي للكون[٢]. فهذ ما قد يفسر لنا تغير رأي (رشيد رضا) حول موضوع الكرامات والخوارق بشكل خاص.

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني والثلاثون، ص ٣٦

(٢) يُمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين،ص١٠٦، ٢٢٣

تعقيب :

يمكن أن نقول إن التيار الإصلاحي أو التوفيقي الذي يحاول التوفيق بين الإسلام ومقررات الحضارة الغربية الحديثة هو تيار متذبذب إلى حد واضح ويكتنف بعض آرئه الغموض والتردد، لأن أصحابه يريدون الحفاظ على مبادئ الإسلام وعقائده ويتمسكون أيضًا بكل ما قررته حضارة الغرب وألبسته ثياب العلم والعقل، وإن كنت في الحقيقة أشجع على مواجهة الخرافة وأصحابها وأحيي ما قام به (محمد رشيد رضا) من جهود لمواجهة الخرافة التي نتجت عن موضوع الكرامات، ولكن في الحقيقة لم تبدُ لي آراؤه قاطعة حازمة في هذه المسألة فمرة ينفي وقوع الكرامات التي تخالف القوانين الطبيعية ومرة يقول بحدوثها ويعتبرها فلتات الطبيعة، ثم هو يقول بحدوث خوارق مثل محادثة أرواح الموتى بعد استحضارها ولا يجعلها مخالفة للقوانين الطبيعية، وهو ينتقد من يحكي الكرامات وينشرها ولكنه أيضا قام بهذا ونشر كرامات كثيرة قال إنها وقعت له، إنه يقول الرأي ويتمسك به ويجادل بقوة ثم في موطن آخر يتراخى ويترك الرأي العام يسيطر عليه.

وقد حاولت في هذا البحث أن أقوم بإرجاع هذا التغيير في آرائه إلى تطور وتغير العلم الذي كان في بدايته حتميًا مطلقًا ثم صار احتماليًا نسبيًا، فهذا في رأيي قد يجعلنا نلتمس لهذا المصلح العذر الجميل .

وفي النهاية نقول إنه لا بد من أن نُمكّن للتفكير العلمي في مجتمعنا ذلك التفكير الذي لا يقبل إلا الدليل والبرهان، ويجب أن نعتمد التخطيط العلمي لحل جميع المشاكل الاقتصادية والساسية والاجتماعية وغيرها كما تفعل الدول الحديثة[١].

ولابد من مواجهة دعاة الخوارق والكرامات بأن نقول لهم إن ادّعاء الخـــوارق ادّعاء استثنائي فلابد من أن تقدموا لنا أدلة استثنائية، كذلك لابد أن نضع تفسيرات بديلة لأسباب هذه الخارقة تتوافق مع القوانين الطبيعية فإن وُجِد أمر مستحيل لم نستطع تقديم تفسير طبيعي له كانت الدعوى كاذبة[٢].

---

(١) فؤاد زكريا: التفكير العلمي، نشر عالم المعرفة، الكويت، عدد مارس ١٩٧٨م ص ١٢ومابعدها

(٢)جوناثان.سي.سميث:العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي، ص٨٩-٩٢

ولكن ينبغي أن نؤكد في الوقت نفسه على أنّ الله هو المتصرف في الكون والخالق لقوانينه وسننه المطّردة وفي قدرته سبحانه تغيير كل شيء ولا يخرج عن قدرته من الممكنات شيء وقد خرق بعض القوانين الطبيعية لأنبيائه دلالة على صدقهم في البلاغ عنه.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث يمكن لنا أن نضع أيدينا على بعض النتائج التي ظهرت من خلال هذا البحث:

١ – الخرافة تغللت في جميع عقائد أتباع الأديان وكان لها آثار بعيدة المدى.

٢ – كان لشيوع التصور الخاطئ عن الكرامات آثاره الضارة على الأمة الإسلامية مما دعا رشيد رضا لبذل الجهد الكبير في تصحيح هذا التصور.

٣ – تأثر رشيد رضا بالعلم الحديث ونظرياته فجاءت آراؤه حول الكرامات نتيجة لمقررات العلم ودار معها حيث دارت من الحتمية إلى النسبية.

٤ – تبنى التيار الإصلاحي والذي يتبعه رشيد رضا النزعة العقلية التأويلية متقاربًا بذلك مع المعتزلة ومتباعدًا عن المنهج السني.

٥ – النظريات العلمية متغيرة من زمن إلى زمن ولا يصح الاعتماد عليها وجعلها أساسًا لفهم الوحي وإخضاعه لتأويلات جريئة.

٦ – ظهر أن التصوف هو منبع الكثير من الخرافات التي أضرت العقل المسلم وأدت للتخلف الحضاري، لكن مع ملاحظة أن نزعة التصوف كانت وراء كثير من أعمال المصلحين الكبار.

مراجع البحث:

١. ابن تيمية : مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم،الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م ،ج١١.

٢. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، الجزء السابع.

٣. ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني ،مكتبة السلام العالمية، ج٥.

٤. أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة،، ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،بيروت لبنان، بدون تاريخ

٥. أبو القاسم عبدالكريم القشيري: الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الإمام عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف،ج٢، ص٥٢٣

٦. أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م،ص ١٠٧

٧. أبوبكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ت٣٨٠هـ: التعرُّف لمذهب أهل التصوف،تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٨. البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق د/عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨-١٩٨٨،ج٦.

٩. تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، دار إحياء الكتب العربية .

١٠. جمال نصار حسين: الشريعة والمعجزة رؤية معاصرة، بحث في مجلة التربية قطر، سبتمبر٢٠٠٤، رقم العدد١٥٠.

١١. جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

١٢. جوناثان سي.سميث: العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي ترجمة محمود خيال، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٥٦٣ ، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م

١٣. رفاعة رافع الطهطاوي: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر القاهرة ، ط١، ١٤١٩هـ.
١٤. الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق عبد الرازق المهدي، ج٤ .
١٥. عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: المواقف في علم الكلام،عالم الكتب – بيروت ،ص٣٧٠، ابن خلدون: لباب المحصل في أصول الدين، تحقيق د.عباس محمد حسن، دار المعرفة الجامعية ،١٩٩٦م، ص١٨١
١٦. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، نشر عالم المعرفة، الكويت، عدد مارس ١٩٧٨م .
١٧. القاضي عبدالجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٥ التنبوات والمعجزات، تحقيق محمود محمد قاسم.
١٨. محمد أبوزيد: الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤٩هـ.
١٩. محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار،الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ هـ. ١٩٨٣ م مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان – الجزء٨٩.
٢٠. محمد جواد مغنية : معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، مكتبة الهلال بيروت،ط٢ ،١٩٨٢م .
٢١. محمد حسين هيكل: الإيمان والمعرفة والفلسفة، دار المعارف، القاهرة،الطبعة الثانية، د.ت،ص ٣٤
٢٢. محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،الطبعة الثالثة،١٤٠٦هـ
٢٣. محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية١٣٦٦هـ،١٩٤٧م، الجزء الأول
٢٤. محمد رشيد رضا: مجلة المنار، الطبعة الثانية، ١٣٢٧هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
٢٥. محمد عبده: رسالة التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى،١٤١٤هـ،١٩٩٤م.

٢٦.محمد عبده: الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، في الكتابات الاجتماعية، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، ط١ ،١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٢٧.محمد فريد وجدي: الإسلام في عصر العلم، ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة .

٢٨.محيي الدين ابن عربي ت٦٨٣: الفتوحات المكية ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين،منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م، الجزء الثالث.

٢٩.ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، لبنان، الجزء الثاني من المجلد الرابع (١٣)

٣٠.يُمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، ضمن سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ديسمبر ٢٠٠٠م

٣١.يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الناشر: مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات (الهند)، الطبعة الأولى ٢٠٠١م